آلام الشعر

نرمين رأفت زايد

تئن أشعارُنا الآن منا، وتصدر صراخا وآهات على ما آل إليه حالها، تبكى فى كل يوم وكل ليلة، بل تنزف أنهارًا على ضياعها، تتلفت حولها كأنما تبحث عن أمر جاد، ترى علام تتلفت؟! ترى لماذا تئن وتصرخ وتبكى؟! حزينة بسبب ما أصابها من التيه،وكلما تذكرت أنها تائهة فى أرض أهلها،ازدادت ألما وحسرة،فهم حولها وهى تعلم فهى تعلم بل تتيقن أن هذه الأرض هى التى نبتت فيها، وهى التى تربى فيها ونمى أباؤها وأجدادها، وتعلم أنهم تربوا فى كنف أناس عظام كالملوك، كانوا حين يكتبون أشعارهم يحيطونها بعناية فائقة، وينتقون أجمل وأفضل الأساليب والألفاظ لها، كانوا يزينونها بأفضل حلى، كانت تلبس خير ثياب، فتنظر أشعارنا الآن وتتعجب،أين أشعار أجدادى،لماذا حتى لا أسمع الناس يرددونها؟ ثم تسأل نفسها لماذا أصبحت فقيرة إلى هذا الحد؟ ولماذا تهت من أهلى ؟ ولماذا لا يرعانى أحد؟ أأنا من نسل هذه القصائد العظيمة وأنا فقيرة الكلمات ،معودمة الحس ،ألفاظى كلغة أخرى غير لغة البيان التى تربى عليها أهلى قديما،أأصبحت أذواق الناس هكذا حقا حتى يكتبونى بهذا المستوى الردئ؟

تكرر هذه الأسئلة على نفسها مرارا وتكرارا، أراها دائما على هذه الحال، فاقتربت منها ذات مرة ربما أجد إلى الحديث معها سبيلا، فلما اقتربت حاولت أن أخفى علامات العجب من على وجهى بابتسامة هادئة، وسألتها ما الأمر؟ فردت سريعا: أحتاج المساعدة ولا أحتاج لوصف حالي، فحالي يصف نفسه، واستطردت فى الحديث وقالت: كنت من عائلة غنية وعظيمة،ولكنى افتقرت شيئا فشيئا،وأصبحت مع أناس غير الذين تعودت عليهم، فظننت أننى تائهة

بالرغم من أننى متأكدة من المكان لا الأشخاص.

فكرت قليلا ثم قلت لها: بعض ظنونك صائبة وبعضها لا، إننا نسل أهل البيان ولكننا غيرنا جلدنا شيئا فشيئا، حتى ظننت أنَّ من تعيشين معهم أناس مختلفون أو نسل أمة مختلفة، أصبحنا لا نشابههم لا من قريب ولا من بعيد، ولكن لا تقلقى نحن نسلهم بالفعل، وقد لحقنا تدهور كبير فى لغتنا، أصبحنا لا نعرف عنها إلا قشورًا، أصبحنا مزدوجي اللغة، إحداهما عامية أدخلناها فى كتابتك فأفقرناك وسرقنا حليك وثيابك الحسنة، وسرقنا البهجة من عينيك، ولغة أخرى هى الفصحى لا نعرف عنها أكثر من ذلك، نظن ألفاظها غريبة، ومعانيها أغرب، ولكنها حلوة الموقع فى النفس كما سمعنا من أجدادنا، حقا كان أجدادنا عظام وأنت أيضا كان أجدادك عظام لأن أجدادى هم من كتبوا أجدادك بزينة فائقة وروعة واتقان فقد كان أجدادك يبهرون كل من قرأهم، فيزداد أجدادى افتخارا وإكبارا، وانفعلت فى حديثى وقلت: كانت أمواج البحار ترقص على أشعارهم، وترتطم ببعضها وتتقلب من روعة ألفاظها ومدى انسجامها، وكانت النجوم تتلألأ عيناها من الإعجاب بما فيها من طبيعة خلابة ووصف عجيب لكل ما فيها، كانت السيوف تترفع بنفسها من حماسة الكلمات، كانت الطبول تصفق ترحيبا بكل إبداع جديد، حقا لقد كان الذوق والحس لدى أجدادى أفضل منا بكثير.

وصمت لحظة، فانخرطت فى البكاء كأنها قد انتظرت هذه اللحظة حتى تتفجر فى البكاء فأخذتنى الحمية وقمت من مكانى فجأة وجمعت الناس حولى فى لمح البصر من صوتى وصياحى وربما بذل الصدى معى دورًا كبيرًا فى جمع الناس وبدأت أصف حالها، فوجدت من يتحمس لى ويريد المساعدة، ولمحت فى أعين كثيرين عجزا يختلط ببعض من الإرادة ولكننى وجدت الكثير

يستهزئ بنبرات صوتية مستفزة كأنما أحبوا الذل والهوان بهذه الأشعار، فأفلت بمن اقتنعوا بحديثي، وخطبت فيهم وقلت: علينا أن نبرز لهؤلاء أننا قادرون، علينا أن نريهم آيات الروعة والإبداع، علينا تربية جيل جديد من القصائد الحسنة حتى لا يقع أبناؤنا فيما وقعنا فيه من الضياع، فلنبني جيلا جديدا، ونلقنهم العربية وأشعارها خير تلقين، وننمى ذوقهم الشعرى، ولنختبر حاستهم ولننبت منهم أفضل القصائد، فلنضع على عاتقنا هذا الحمل حتى نرتقي بالذوق الشعرى الارتقاء الذى يرتضيه، وحتى نزين التراث الشعرى بقصائد تستحق الاحترام وتكون خير زاد لخير خلف كما ترك لنا الأقدمون زادنا، ولنجعل من قصائد هؤلاء الأقدمين نبعا فكريا لنا، ونجعل من الواقع الذى نحياه خير تصوير وتجسيد، ولنفجر من الأعماق خير إحساس، وما أظن ذلك مستحيلا.

